شرح كتاب الفتن من صحيح البخاري: الدرس الرابع

لفضيلة الشيخ الدكتور/ عبد العزيز بن أحمد البداح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده

فهذا كتاب الفتن من صحيح البخاري

قال رحمه الله تعالى: **بَابُ ظُهُورِ الفِتَنِ**

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد.

فيقول المؤلف رحمه الله تعالى: **بَابُ ظُهُورِ الفِتَنِ**

المراد بالفتن هنا الفتن العامة وهي التي تموج كموج البحر فقد جاء عند البخاري ومسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل الناس فقال: "أيكم سمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفتنة؟" فقال حذيفة رضي الله عنه:" فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تُكَفِّرُها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر." فقال عمر رضي الله عنه :" ليس عن ذلك أسألك ولكن عن الفتنة التي تموج كموج البحر." فالمقصود بباب ظهور الفتن يعني الفتن العامة العظيمة، وكان مُبتَدَأ الفتن الفتنة الأولى أو الفتنة الكبرى التي وقعت في عهد عثمان رضي الله عنه وأرضاه ثم تتابعت الفتن بعد ذلك وكنت تكلمت عن فتنة عثمان رضي الله عنه وما جرى فيها والعِبَر التي يستخلصها الإنسان منها ، ومن الفتن العظيمة التي حذَّر منها النبي صلى الله عليه وسلم فتنة الخوارج فقد جاء في الخوارج من الأحاديث والنصوص ما لم يأتِ في فرقةٍ أخرى فإنه لم يصح في فرقةٍ من الفرق ما صح في الخوارج وغاية ما ورد في الفرق الأخرى ما جاء عند أبي داوود عن القَدَرِيَّة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **((القَدَرِيَّة مجوس هذه الأمة إن مَرِضوا فلا تعودهم وإن ماتوا فلا تُشَيِّعوهم))** وهذا الحديث مُتَكَلَّمٌ في إسناده. أما فرقة الخوارج فقد جاءت أحاديث كثيرة في التحذير منهم وذَمِّهِم والأمر بقتالهم وجاءت هذه الأحاديث في البخاري ومسلم وأصحاب السُنَن وعند الإمام أحمد وقد قال الإمام أحمد رحمه الله:" صَحَّ الحديث عن النبي ﷺ في الخوارج من عشرة وجوه" والنبي ﷺ لما جاءه كما في الصحيحين عبد الله بن ذي الخُوَيصِرة التميمي وقيل إن الذي جاءه ذو الخويصرة والده قال:" يا محمد اعدِل." فقال النبي ﷺ: **((ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل))** فقال ﷺ لما وَلَّى الرجل: **((يَخْرُجُ مِن ضِئْضِئِ هذا** – يعني من أصله- **قوم تحقرون صلاتكم عند صلاتهم وصيامكم عند**

صيامهم يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كما يَمرُقُ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ،)) وهذا الرجل ذُكِرَ من صِفَتِه أنه كان يُطِيل العبادة أو الصلاة وذُكِر من صفته أن في جبهته أو جبينه أثر السجود وأنه كان ممن يَنشَطُ في الجهاد في سبيل الله ومع ذلك فالنبي ﷺ قال فيه ما قال وهذا دليلٌ على أن العِبرة ليس بكثرة العبادة فإن الرُّهبان في صوامعهم يُكثِرون من العبادة ومع ذلك فعبادتهم لا تنفعهم وهي مردودةٌ عليهم؛ لهذا يفهم المسلم من هذا أن العبرة بصحة العقيدة وسلامة المنهج واتباع النبي ﷺ واقتفاء أثره والاهتداء بسنته ولزوم غَرزه عليه الصلاة والسلام. قيل إن مُبتَدَأ خروج الخوارج ما كان من عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي و قيل إن مُبتَدَأ خروج الخوارج ما كان من خروجهم في زمن عثمان رضي الله عنه وأرضاه وابن كثير رحمه الله سمَّى الذين خرجوا على عثمان رضي الله عنه سماهم بالخوارج و قيل إن مُبتَدَأ ظهور الخوارج ما كان من ظهورهم وخروجهم على علي بن أبي طالب رضي الله عنه في معركة الصِّفِّين لَمَّا رَضِيَ بالتحكيم ثم خرجوا عليه وانحازوا إلى مكان يقال له حَرُوراء وكان عددهم قريبًا من ثمانية آلاف وقيل أكثر من ذلك فبعث إليهم علي بن ابي طالب عبدَ الله بن عباس رضي الله عنهما فحاورهم فرجع منهم عددٌ كبير وبَقِيَ منهم عدد ثم إنهم قاموا بقتل عبد الله بن خَبَّاب بن الأَرَت وبَقَروا بطن زوجته وكان عبد الله هذا عامِل علي بن أبي طالب على النَّهْرَوَان فعَزِم علي بن أبي طالب رضي الله عنه على قِتالِهم فقاتلهم واستَأْصَلَ شَأْفَتَهُم ولم يبقَ منهم إلَّا سبعة أو ثمانية وكانوا بعد ذلك بَذْرَةً لظهور جماعاتٍ أُخْرَى من الخوارج وهؤلاء الخوارج تَفَرَّقوا وكانوا فِرَقًا وكل فرقة منهم تُكَفِّرُ الأخرى ثم آلَ الأمر إلى أن اتفق هؤلاء الخوارج على قتل عمرو بن العاص ومُعاوِية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم لكن لم يتمكنوا إلا من قتل عليٍّ رضي الله عنه وقد خرج إلى المسجد في صلاة الصبح وهو يَصِيحُ بالناس الصلاة... الصلاة فوَثَبَ عليه الخارجي وقتله رضي الله عنه وأرضاه واستمرت فتنة الخوارج في عهد الدولة الأُمَوِيَّة وبُلِيَتْ بهم الأمة بلاءً عظيمًا .

من الفتن العظيمة التي حدثت بعد ذلك وَقْعَة الحَرَّة وكانت سنة ثلاثٍ وستين وهذه الفتن ممكن للإنسان أن يُرَاجِعها ويقرأ ما كتبه أئمة التاريخ فيها ومنهم ابن كثير رحمه الله وابن الأثير في الكامل في التاريخ. وَقْعَة الحَرَّة كانت في عهد يزيد بن معاوية فإن أهل المدينة عَزَموا على خَلْعِ يزيد وبلغ ذلك يزيدًا فبعث إليهم جيشًا على رأسه مُسْلِم بن عُقْبَة والسلف يُسَمُّون مسلمًا هذا مُسْرِفًا بعضهم يقول مُجْرِم وأمره أن يُمْهِلَهُمْ ثلاثة أيام فإن لم يَرْضَخوا لحكمه فعليه أن يدخل المدينة ويستبيحها ثلاثةَ أيام والصحابة رضي الله عنهم كان لهم مَوْقِف من هذه الفتنة فعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما دعا أبناءه وقال:" إياكم والخروج فإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن لِكُلِّ غَادِرٍ لِواءً يوم القيامة يقال هذه غَدْرَةُ فُلان))، وممن اعتزل الفتنة النُّعْمان بن بشير وأبو سعيد الخدري وكذا من التابعين سعيد بن المسيب وغيرهم من سادات الصحابة وأئمة التابعين. دخل هذا مسلم بن عقبة المدينة واستباحها ثلاثة أيام وقتل فيها قتل من أهلها خلقًا كثيرًا ونَهبَ منها أموالًا كثيرة وهذه الفتنة دليلٌ

على ما سبق أن قرَّرْتُه لك من أن أهل السنة والجماعة يَرَون أن الخروج على الأئمة وإن جاروا وإن ظلموا أنه مُحَرَّم والمَصلَحة في ذلك مصلحة المسلمين العامة؛ لأنه يَتَرَتَّب على مثل هذا الفعل مثل ما حدث في وقعة الحرة من سفك الدماء ومن تضييع المصالح الدينية والدنيوية ؛ ولهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ذكر في منهاج السنة في أكثر من موضع أنه قلما خرج قومٌ على ذي سلطان إلَّا وتَوَلَّدَ من الشر أضعاف أضعاف ما كان.

من الفتن العظيمة التي وقعت أيضًا فتنة ابن الأشعث عبد الرحمن بن الأشعث وكانت بداية هذه الفتنة سنة واحد وثمانين من الهجرة واستمرت ثلاث سنوات وقُتِل فيها خَلْقٌ كثير وذلك أن عبد الرحمن بن الأشعث كان أحد القادة عند الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق في زمانه فبعثه الحجاج إلى غَزْو رُتْبِيل أمير التُرْك؛ لأن أمير الترك هذا دخل بعض بلاد المسلمين وقَتَلَ مَنْ قتل منهم فأراد الحجاج بن يوسف الثقفي أن يَبْعَثَ عبد الرحمن بن الأشعث ردًّا على ما فعله رُتْبيل ملك الترك في المسلمين فمضى عبد الرحمن بن الأشعث وكان بينه وبين الحجاج بن يوسف وَحشة فهو يُبْغِض الحجاج والحجاج يُبْغِضه وهذا يدلك يا إخوان إن أحيانًا أن الخروج على الأئمة لا يكون القصد منه ما قد يرفعه هذا أو ذاك أو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو من إقامة الحق أو من ردِّ المَظَالِم وإنما يقف خلف هذا أحيانًا عوامل شخصية أو دوافع نفسية فعبد الرحمن بن الأشعث كان يُبْغِض الحجاج والحجاج يُبْغِضه فلمَّا مضى في بلاد التُرْك وفُتِحَ له كثيرٌ من بُلْدَانِها رأى أن يَسْتَقِر لِمُدَّةِ سنة حتى يَسْتَتِبَ له الأمر ثم يمضي بعد ذلك في مُلاحَقَةِ رُتْبِيل أمير الترك؛ لأنه هرب من المسلمين. بَلَغَ ذلك الحجاج فكتب إلى عبد الرحمن بن الأشعث يَعيب عليه رَأْيَه ويتهمه بالجبن والخَوَر ويأمره بالمُضيِّ في قتال رُتْبِيل أمير الترك. استشار عبد الرحمن بن الأشعث مَنْ معه فقال بعضهم:" إن الحجاج لا يَعْبَأ بِكَ ولا بنا فإن ظَفِرت بعدوك وعدوه كان الغُنْم له وإن هلكت دون ذلك فشرٌّ يستريح منه الحجاج " وقام والد عبد الرحمن بن الأشعث وكان خطيبًا وخطب في الناس ودعاهم إلى خَلْع الحجاج بن يوسف الثقفي وكان الناس يَنْقِمون على الحجاج فخلعوه ثم رجعوا وهذا أمر مهم فتركوا قتال الكفار و رُتْبِيل أمير الترك ثم رجعوا إلى العراق لمحاربة وملاقاة المسلمين جيش الحجاج بن يوسف الثقفي فلَمَّا رجع الحجاج ووصل إلى البصرة تَبِعَه خَلْقٌ كثير قيل إن جيشه أصبح قريبًا من ثلاثين ألفًا فارس ومئة أوعشرين ألف راجِل وتَوَرَّط في هذه الفتنة بعض التابعين مثل سعيد بن جبير وأبي عبد الرحمن محمد بن أبي ليلى والشعبي وغيرهم وهذا يُشير إلى أن الرجل الفاضل ليس بمعصوم وأنه قد يَزِلُّ لكن لا يُتابَعُ في زلته ولا يكون حُجَّةً في زلته ولا يكون حجةً في خَطَئِه ثم بعد ذلك قال هؤلاء وهم في رجوعهم:

" إن كنتم خلعتم الحجاج فاخلعوا عبد الملك بن مروان الخليفة" فخلعوه وبايعوا عبد الرحمن بن الأشعث بالخلافة.

بلغ ذلك عبد الملك بن مروان وأرسل جيشًا عظيمًا للحجاج واستمرت هذه الفتنة ثلاث سنين وقُتِلَ منها خَلْقٌ كثير . كتب عبد الملك بن مروان إلى عبد الرحمن بن الأشعث أنِ اكْفُفْ عن القتال ولك أن نُوَلّيك ما ترى من الأقاليم وتبقى فيه ما عِشْتَ وما عِشْتُ ولك من الأُعطيات و... فاستشار عبد الرحمن بن الأشعث من معه لكنهم غَرَّتهم قوتهم وقالوا:" نحن أكثر عددًا وعُدَّة" وهذا دليل يا إخوان على أن هذا الذي خرج لم يخرج لله عز وجل ولا لنصرة دينه وإنما خرج للدنيا؛ ولهذا لَمَّا عُرِضَت عليه فاوض لأجل قَبولها وكان مع وكان في جيش عبد الرحمن بن الأشعث جُمْلة من القُرَّاء يعني الفقهاء وكانوا هم الذين يُحَرِّضُون الناس ويُؤَلِّبونهم وكان الناس يلتفون حولهم فحمل عليهم الحجاج وحصلت مَقْتَلَةٌ عظيمة فَفَرَّ عبد الرحمن بن الأشعث ومن معه وفروا إلى أين؟ فروا إلى رُتْبِيل ملك الترك، وأقاموا عنده فأكرمهم نِكايةً بالمسلمين ثم بعث الحجاج إلى رتبيل يأمره بأن يُسَلِّم عبد الرحمن بن الأشعث ومن معه فاستجاب ملك الترك وبعث عبد الرحمن بن الأشعث وفي الطريق صَعَدَ بُرْجًا وألقى بنفسه ثم مات هذه كانت نهاية الزعامة في الفتنة والتَّصَدُّر في المحنة نعوذ بالله من ذلك ثم حُزَّ رأسه وبُعِثَ إلى الحجاج والحجاج بعثها إلى الخليفة في دمشق والخليفة في دمشق بعثه إلى أخيه في مصر وهكذا كانت نهاية عبد الرحمن بن الأشعث. لم تتوقف الفتنة هنا عند هذا الحد بل إن الحجاج تتبع من تورطوا في هذه الفتنة وقيل إنه قتل مئةً وثلاثين ألفًا وبعضهم من سادات التابعين كسعيد بن جبير رحمه الله. المقصود من هذا إن هذه الفتنة أو أن الفتن تتزين للناس وتتجمل لهم ولا يتورط فيها في الغالب إلا الهَمَج الرِّعاع وقد سبق أن ذكرت لك قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما ذكر أقسام الناس وذكر أن منهم هَمَجٌ رِعاع أتباع كل ناعِق وأيضًا قد يتورط فيها الرجل الصالح لكن لا يُتابَعُ في زَلَّته بل إن أيوب السختياني رحمه الله ذكر أنه ما من أحدٍ صُرِع في فتنة ابن الأشعث إلَّا رَغِب عن مصرعه يعني ما كان يود أن يُصْرَع وما من أحدٍ نجا إلَّا حَمِدَ الله تعالى أن سَلَّمَه من تلك الفتنة يتلخص من فتنة ابن الأشعث أن الدخول في الفتن ذَهابٌ للدين وإهلاكٌ للدنيا وأنه ليس في مصلحة المسلمين العامة الدخول في الفتن أو إحياء الفتن أو إشعال الفتن نسأل الله عز وجل للجميع التوفيق وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.